عروسة النيل

الفصل العاشر

عادت باولين الى غرفتها وقد انهكها التعب واعياها السهر وقلق البال فانطرحت على سريرها وحاولت النوم فلم تغمض اجفانها ثم طلعت الشمس وتنذت اشعتها الغرفة فنهضت لتقفل النوافذ اتقاء حرّها وبينما هي تعالجها ابصرت حيرام يسعى الى ضفّة النهر فوثب الى قارب ودفعهُ عن البرّ فلم تجسر على مناداتهِ لئلاَّ يسمعها من في البيت ولما توسَّط الماء التفت نحو غرفتها فرآها واقفةً عند النافذة فلوّح بالمجداف اشارة الى نجاح مساعيهِ ففهمت انهُ عابر الى العدوة الشرقية وانهُ يريد النبطي للاتفاق معهُ وارسالهِ في مهمتهِ فاقفلت النوافذ وعادت فاستلقت على سريرها وقد اخذ النعاس منها كل مأخذ فنامت نومًا ثقيلاً افاقت منهُ والشمس في رائعة النهار

وكان اعيان المصريين وكبراؤهم في ذلك العصر يتشبهون باليونان في عاداتهم وآدابهم واحوال معيشتهم حتى انهم كانوا يتكلمون اليونانية في بيوتهم واجتماعاتهم الاَّ اذا ارادوا مخاطبة الخدم والاتباع فبالقبطية لغة البلاد . وكان المقوقس واهل بيتهِ كغيرهم من الاعيان يتكلمون اليونانية حتى ماري حفيدتهُ فقد كانت تحسنها قبل ان تعلم لغة اجدادها فلما ضمَّ المقوقس باولين الى بيتهِ عنيت بتعليمها الكتابة فسرَّ هو وزوجتهُ لاهتمامها وتعلَّقت بها نفس ماري واحبتها حبًّا شديدًا فلم تعد تفارقها. ولما اشتد النفور بين السيدة نفورس وباولين ابت عليها ان تثابر على تعليم حفيدتها بحجة انها لقَّنتها يومًا ما شيئًا من كتاب صلوات الروم الملكيين وزعمت ان ذلك مفسد لعقيدتها والحقيقة انها احسَّت بانصراف حب ماري عنها الى نسيبتها فاقامها ذلك واقعدها ورأت ان تضع لهُ حدًّا فنهت ماري عن الاجتماع بباولين ولم تعد الاثنتان تتكلمان الاَّ خلسةً حين تأمنان عين الرقيب

فلمَّا افاقت باولين ذلك الصباح عمدت الى شعرها فاصلحتهُ واخذت تتهيأ للخروج فسمعت قرعًا خفيفًا على الباب ثم دخلت ماري وقد اشرق وجهها الحلو وبرقت عيناها فتقدمت الى باولين وقبَّلت يدها فاكبَّت هذه عليها وقبلت جبينها وشعرها ومسحت خديها ثم قالت لها

— ما بال الغزال مضطربًا

— انهُ الحرّ فقد سمعت المهذبة تقول ان مصر في الصيف جهنم على الارض وقد فارقتها لتتقلب كالسمكة على الرمل

— وتخلصتِ من عناء الدرس على اني ارى آثار الدمع في عينيك فما الذي ابكاكِ

— لو قلتُ لكِ لغضبتِ

— كلاَّ

— لقد حدث اليوم حادث ذو بال في المجلس وبعد ان تفرقت الجماعة تبعت اوربون الى دار التحف فاقبل على القطيف كمن يعدُّ حجارتهُ وبينما هو كذلك وثبتُ على ظهرهِ فذعر شديدًا واضطرب ثم دار اليَّ ولطمني لطمة شديدة فعجبت لقسوتهِ وخشونتهِ بعد لطفهِ وحنوِّهِ فبكيت كثيرًا ثم سجنني في دار التحف

— اخطأتِ في ما فعلتِ فعملكِ شاب وليس من ترابكِ فلا يحسن بكِ ان تجاوزي حد اللياقة معهُ ولكن ما الذي تعلمينهُ من امر هذه الكلاب فقد اصابني صداع من نباحها

— هذه كلاب الصيد اطلقوها لاقتفاء اثر من سرق الزمردة من القطيف بعد ان خلَّى تعليهِ في القاعة فخرت الى باب غرفتكِ هذه ثم عادت الى مسكن سائس الخيل وبعد ان دارت فيهِ انطلقت تعدو في شوارع المدينة حتى دخلت بيت غالائيل حيث فارقتها ولا اعلم بعد أأدركت السارق ام لم تدركهُ

فاصفرَّت باولين لسماعها هذا الخبر وعلمت انهم يطلبون حيرام وانهم يتهمونهُ بسرقة الزمردة وهو بريء منها ولما طال بها التفكير قالت ماري

ألاَ تظلين حزينة كئيبة فما للآخرين لا يحزنون مثلكِ

— لاني تعيسة وليسوا كذلك فقد قاسيت من الاهوال ما بدَّد الفرح من قلبي وشتت شملهُ واخشى انهم يطلبون حيرام عتيق ابي وهو من خير الناس واشدهم امانة وابعدهم عن السرقة

أوَ تعنين حيرام مربي الخيل صحيح فقد سمعتهم يتساءلون عن السائس الا لكن

— اذًا لم اخطئ قصدهم. قالت هذا وجلست على كرسي وغرقت في بحر التاملات وطافت ماري في الغرفة حتى بلغت صندوق باولين المفتوح فرأت العقد فرفعتهُ وتقلدتهُ وفيما هي كذلك قرعت كاترينا الباب ودخلت فاسرعت الى باولين وقبلتها ثم عطفت الى ماري لتحييها ولما رأت العقد اخذتهُ منها ولبثت تتأمل جمالهُ ودقة صنعتهِ التي كانت لا تزال باديةً فيهِ رغمًا عمَّا خسرهُ من بهائهِ بانتزاع وسطاهُ ثم لبستهُ وتناولت من الصندوق عينهِ مروحة من ريش النعام ووقفت تمثل حركات الاميرات والنبيلات في بلاط الامبراطور وهي تضحك وتمزح كعادتها . ولما فرغت باولين من نفر شعرها دنت منها وامسكت العقد تريد نزعهُ فعلق موضع الزمردة

منهُ بثوبها فتركتهُ ماري وناولتهُ لباولين فالتقتهُ في صندوقها ثم سألت كاترينا عن مكان اوريون فقالت انهما اتيا معًا وانهُ غادرها ليزور رستمًا الجريح فقالت باولين

— هلمَّ اذًا الى الفطور ولا تنتظراني فقد ابطيتُ في النزول فقالت ماري بحقكِ لا تفارقيني بجدّي مريض وجدتي قائمة على خدمتهِ ومركبة كاترينا بانتظارها فاذا ذهبتِ بقيت وحدي فاجابت باولين اتبعكِ بعد ان ازور الجريحين وتقدمت الى غرفة مانداني وقرعت الباب فاستقبلتها ممرضة من راهبات دير القديسة كاترينا فعلمت منها ان اوريون لم يطل المقام مع رستم فوقفت تفكر في امر حيرام ثم حانت منها التفاتة فرأت في الغرفة المجاورة هاشمًا والطبيب فيلبس منهمكين في الحديث وكان الطبيب في الثلاثين طويل القامة اصفر الوجه نحيل البنية ينبعث الذكاء والدعة من عينيهِ وفي عظام خديهِ بروز زائد وليس في ملامح وجههِ ملمح سوى جبهتهِ وكأنها في اتساعها وشموخها قبة فخيمة على بناء حقير

وكان موضوع حديثهما اوريون وكان الطبيب محبًّا للعمل يحتقر الذين يقضون الحياة في البطالة وكرع الملذات ويعتبر العمر شيئًا مقدسًا يجب قضاؤهُ في ممارسة الاعمال التي تعود بالنفع على صاحبها وعلى البشرية باسرها فمن فعل غير ذلك اصبح عضوًا مؤذيًا في جسم الاجتماع يجب اتلافهُ . وكان عالمًا بسيرة اوريون واقفًا على ما فعلهُ بمانداني وغيرها من النساء فبات قذىً في عينيهِ اما هاشم فكان يرتاي العكس ويزعم ان الحياة حلم اجمل ساعاتهِ الشباب ويعتقد ان من واجبات المرء التلذذ في ربيع العمر هذا الى ان قال ومن العبث معاندة الاقدار فالمقدَّر كائن لا يحي وان اوريون اليوم كسفينة قارعة تديرها الريح الى تشاء لكنهُ سيجلي عن صفات طيبةٍ وطوية صافية وشجاعة غريبة فيما لو عبثت العواصف بسفينةٍ او حلَّت بهِ مصيبة ترتعد لها فرائص غيرهِ . وفيما هما كذلك دخلت باولين عليهما فوقفا وحييا احسن تحية، وكان بين فيلبس وبينها شيء من الصداقة نشأ فيهِ عن سوء معاملة نفورس لها وما ابدتهُ من الانفة والشهامة فانتصر لها وصار يحدثها كلما سنحت لهُ الفرصة ويجلو صدرها بالاخبار فطاب لها كلامهُ والفت فيهِ معزيًا لها في كربها فلما جلست دار الحديث على ابيها فاخبر فيلبس هاشمًا انها لا تنفك تبحث عنهُ الى ان قال وارى في ذلك خطاءً كبيرًا فاجاب التاجر

— اصابتْ واخطأتْ فلا يجدر بالمرء ان يستسلم لليأس . فقالت باولين وهذا عين ما اراهُ أوَ لست القائل يا فيلبس انك لا تزال ترجّي المريض حتى يقطع الموت حبل الامل فانا اليوم كذلك وسانفق آخر درهم املكهُ في البحث عنهُ رضي النسائي او ابوا . فقال هاشم

— وانّى يتسنى لكِ ذلك وانتِ فتاة فلا بدَّ لكِ اذًا من معونة رجل ولما كانت مهنتي

تقضي عليَّ بكثرة التجوال والتطواف في البلاد فلو اذنتِ لي لكنت ذلك الرجل فساعدتك في طلب البطل توما

— ذلك لكَ وسأذكر فضلك ما حييت

— سنلقاهُ باذن الله وسأتولَّى الامر بنفسي ومتى عثرت عليهِ اعلمتكِ وسأذهب اليوم الى الفسطاط لمقابلة عمرو بن العاص فاتكلي يا ابنتي على الله انهُ وليُّ التوفيق

الفصل الحادي عشر

وبعد انصراف التاجر خانها الجلَد وودَّت لو سألتهُ الشفاعة في حيرام فهرولت تريد لحاقهُ فقيلَ لها انهُ امتطى جوادهُ وعبر الجسر (الكبري) الى الفسطاط واخبرتها احدى الجواري انهم لم يلقوا القبض على حيرام فرأت ان زمن الشفاعة لم يحن ولكنها عزمت على اتخاذ جميع الوسائل لانقاذهِ ولو باعترافها بما رأتهُ تلك الليلة لكنها استحسنت انذار اوريون قبل الايقاع بهِ لعلمها ان ازاحة اللثام عن الجاني يجلب العار على اهل بيتهِ ولانها على كرهها لهُ لم تنسَ ما لابيهِ من الايادي عليها وما كان لطلعتهِ من الوقع في فؤادها ولما حارت في امرها رأت ان تعاود الاجتماع بالطبيب لعلَّها تجد في حديثهِ ما يفرج ضيقها فعادت ادراجها الى غرفتي الجريحين فنظرت اليها الممرضة شزرًا وقالت لها "من اذن لك في الدخول الى هذا المكان وماذا تطلبين فيهِ" فاجاب الطبيب وكان منهما بحيث يسمع الكلام فقال "انا اذنت فلا تعترضيها" ثم التفت الى باولين وقال ان الجريحين على ما يرام من التماثل من جراحيهما واظنكِ جئت تطلبين اوريون الجميل فقالت

— اعلم انني لا اكترث لاوريون اكثر من اكتراثي لامهِ على ان في نعتك اياهُ "بالجميل" شبهًا لا احب ان اسمعهُ بعد فقد اتيت لاكلمهُ في امرٍ ذي بال

اذًا علامَ عدتِ بعد انصرافك فلو كنتِ مريضة . . . .

— انا والحمد لله في صحة تامة ولكني في حاجة الى ما ينبهني من هذا السبات الذي انا فيهِ

— اذا اردتِ بالصحة المتعارف بها فانتِ منها بحيث تحسَدين ولكنكِ لست كذلك في ما اسميهِ صحة الفكر

— وما دليلكَ على ذلك اخطأ صدر مني

— معاذ الله ولكنهُ عدم اعتدادك بالسوى

— ومن تعني بالسوى

— جميع من في هذا البيت والمدينة والعالم فالناس في عينيكِ كالهباء المنثور او هم اقل قيمة منهُ

— ان عالمي في قلبي

— صحيح فالقلب فسيح يسع جميع ما نودعهُ على ان طول اقفالهِ يصدئهُ فاذا حاولنا فتحهُ حينئذٍ عجزنا ولا اخالك تنكرين انك كثيرة التلفت الى الوراء

— وما الذي القاهُ اذا نظرت الى الامام وما دليلك على اني كذلك

— دليلي ما عرفتهُ من طباعكِ واخلاقكِ ووقوفي على بعض ما يدور في خلدكِ فعالمك اليوم يتألف من عيشة الرخاء التي قضيتها في ما سلف من عمرك قبل ان اتيتِ منف . اتذكرين تلك الصورة التي رأيتها معي حيث احد المردة يجري ورأسهُ ملويٌّ الى الوراء

— نعم اذكرها

— انتِ كذلك فقد قال بعضهم ان الحركة من طبيعة الاشياء فاما ان تتابعي سائر الناس او تجري وعيناك الى الوراء والنتيجة . . .

— اني اعثر واسقط

— لاخوف عليكِ من السقوط فقد منحتكِ الطبيعة من المواهب والاخلاق ما يندر مثلهُ

— وما عليَّ اذا اطلت التلفت الى الوراء ما دام لي فيهِ عزاء

— قد يكون كما تقولين ولكن فاتكِ انكِ بعملكِ هذا تدوسين على ارجل غيرك فتؤذينهم ويسيئون الظن بكِ

— ولو ظلمًا فلا اذكر انني الحقت اذىً باحد

— ولكنكِ فعلتهِ مرارًا غير متعمدة

— فخير لي ولهم اذًا ان نفترق

— يخال الذين يطلبون العزلة عن بني جنسهم انهم يأتون امرًا عظيمًا ولكنهُ حبُّ الذات يدفعهم الى الدير او الى الكهوف والمغائر لان انفرادهم يحرم المجتمع من اسعافهم ومجدتهم واراكِ ترغبين في العزلة فتكنين في صدركِ جميع ما لديكِ فقد لقيتِ عناء وشقاء فاتخذتهما طعامًا لنفسك وبئس الطعام السخيف ولا يخفى عليكِ انني مارست احوال هذا الدهر فرأيت المصايب تحيي النفس في بعض الاحايين فتعلِّم المصابين ان يرثوا لغيرهم وان يسعوا لتخفيف كربهم والمكروب يجد من اللذة في بعض السرور ما لا يلقاهُ غيرهُ في الكثير منهُ وقليل من الفرح يدخل على قلبهِ الابتهاج والطرب اما انتِ فلا فائدة لكِ من حزنكِ لانهُ مقفل عليهِ في صدركِ فلو

حسبتِ نفسكِ واحدة من القوم وبذلتِ ما عندكِ من المواهب التي ورثتها عن اسلافكِ العظام وخصَّكِ بها الله لانعقدت القلوب على حبكِ ولم يعد الناس يرون فيكِ شجرة شائكة يتقون الدنوّ منها ولا اسهب الكلام بعد في هذا الشان فقد كلفني قول ما قلت عناءً كبيرًا لاني آثرت غيظك لكني لست بنادم على ما فعلت فقول الحق رأس الواجبات ولكن جزاء المجاهرين به ان يبتعد الناس عنهم حتى الاصدقاء. ولما فرغ من كلامه وقفت باولين وبسطت يدها وقد بدا الرضا في وجهها فقال لقد حققتِ آمالي فاقبليني أخًا لكِ وهلمَّ الى تلك الجارية الفارسية فاذا قمتِ على تمريضها برئتْ وعاودتها الحياة والنضارة. فتقدمتْ الى غرفة مانداني وهناك شرح لها ما يتهدد حياتها من الخطر وما اتخذهُ من الادوية لعلاجها وعلَّمها صنع الضمادات ووضعها ومقدار الجرعات وساعاتها وافعمها ان المجروحة تهذي فلا باس من مجاراتها على هذيانها الى ان تفارقها الحمَّى ثم غادرها هناك وانصرف

فلما خلت بنفسها اسندت رأسها الى كفها واخذت تقابل بين اوريون وفيلبس ذلك بجماله وبهاء طلعته وشرف حبه وهذا بقبح صورته وسلامة طويته واخلاصه واجتهاده وفضله فقالت في نفسها لقد كذب المثل القائل ان الوجه عنوان القلب والاَّ لكان اوريون فيلبس وفيلبس اوريون . وعلمتْ انها لقيت في الطبيب صديقًا صدوقًا ثم عادت تفكر في امر حيرام فادركت ان لا بدَّ من وقوع النفرة بينها وبين اوريون ومجافاة اهل بيته اذا هي اصرَّت على المجاهرة بالحق في ما تعلمهُ من سرقة الزمرّدة على ان ذلك لم يذهلها عن العناية بالمجروحة بحسب ارشاد الطبيب وجاءت الراهبة الممرضة فوضعت يدها على جبين مانداني ثم قالت لقد فارقتها الحمَّى تقريبًا فزال الخطر والحمد لله . فداخل باولين شيءٌ من السرور واحست كمن لهُ يد في شفائها ولما عاد الطبيب ورأى تماثلها سرّ واثنى على باولين لحسن عنايتها بها وبشرها انها ستتعافى تمامًا ثم طلب اليها ان تبدل الضمادات ففعلت وهو يعجب ببهارتها فلما فرغت قال لقد حذقت الصناعة حتى يخالك الناظر من بناتها فاتركيها الآن نائمة فالنوم افضل دواء لها ولا اظنكِ فطرتِ فاقبلي دعوتي وتناولي الفطور معي فاجابت وجلسا كلٌّ الى خوان صغير وجاء الخدم بالصحاف والكؤوس وبالطير المشوية واللحوم والفاكهة فقالت باولين

هل لك ان تطرفني بشيءٍ من تاريخ حياتك

— حبًّا وكرامة وستريننا حافلة بالمصاعب محفوفة بالمشاق فانا ابن نحويّ يرناني استقدموهُ من اثينا الى الاسكندرية ومات والداي وانا بعد فتًى ولم يخلفا لي سوى شيءٍ زهيد من المال استنفت يدٍ على متابعة دروسي ثم اتخذت التعليم حرفة فتنقلت في مدارس الاسكندرية واثينا

وقيصرية وانا في ذلك الوقت اعمل في تحضير العقاقير والادوية وادرس الطبّ وكان طعامي في تلك الايام قاصرًا على الخبز والفاكهة وشرابي الماء القراح فم اذق اللحوم والطير والخمر الاّ في ما ندر وقد لقيت في سبيلي من العقبات والمشاق ما يفلّ الهمم الماضية على انها لم تثبط عزمي ولا اضعفت مطامعي فثابرت على العمل ولا صديق آنس اليهِ او قريب اعتمدهُ او الجا اليهِ الى ان تمّ لي ان احصد ثمار ماغرست وانا اليوم صديق هورس ابولوكاهن ايسس وهو شيخ هرم منقطع الى الدرس والبحث وقد اتفق لي ان صادقت نفرًا من خيرة الرجال على اني لم اتوفق الى مصادقة النساء ومن كان وجههُ كوجهي فلا غرو اذا نفرت الحسان منهُ

— فانا اول صديقاتك اذًا

— نعم وصديقتي الاولى نادرة المثال وهو ما يعزيني على فشلي في ماضي العمر

— ولكن قُدّر لصداقتنا ان لا تطول ولا سبيل الى معاندة الاقدار

— وكيف ذلك فاني ابذل حياتي في الدفاع عنكِ

— لا تحتاج فجلّ ما يستطيعون ان يفعلوهُ بي طردي من منف

— ومن يجسر على طردكِ

— اولئك الذين لا يزالون يحسبونني اجنبية عنهم فاذا نجحوا كان مثلنا مثل ديونوسيوس القيرواني وابنهِ

وكيف كان ذلك

— جاء في المحفوظ من الروايات ان ديونوسيوس هذا ارسل ابنهُ الى مدرسة في اثينا وشرع ينشئُ مقالة لهُ في ما يجب على التلميذ فعلهُ وما يلزمهُ اجتنابهُ فملأها بالحكم والامثال وقضى في تحبيرها اربع سنوات ولم يكد يفرغ منها حتى انهى الفتى دروسهُ ولم يعد في حاجة اليها فقد عقدنا عهد الصداقة ونحن نوشك ان نتفرّق

— ولكن ما سبب انفصالكِ عنهم

— ستعلم ذلك قريبًا. فصاح وهو يتميز غيظًا

— من يخال طردك من منف امرًا سهلاً فقد خاب فألهُ . قد تتركين يتهم ولكن مختارةً لا مكرهة فتخرجين منهُ عزيزة الجانب موقرة لكني لم احسب انهم يقدمون على هذا الامر . ولم يتمّ عبارتهُ حتى دخل اوربون فلما رآهما كذلك دهش وقال

— اظنني ازعجتكما بدخولي فاجابهُ الطبيب

— كلاّ

اوريون — ما احلى هذا الاجتماع فهل يتمنّى لثالث ان يشترك فيهِ

الطبيب — لا حاجة لنا بثالث

اوريون — يسوءني ان اقاطعكما ولكني آتٍ في مهمة وبعضها خاص بعتيقكِ يا باولين فقالت — أعاد حيرام

— قد اعادوهُ وامر ابي بعقد المجلس لمحاكمتهِ فاذا دعوكِ فتهيأي لشهود التحقيق وبودّي لو استطيع اسعاف الرجل

— فاذًا سأُجبَر على ازاحة اللثام عن الفاصل

— طبعًا وانت يا فيلبس فتنحَّ عنّا فلي كلام اقولهُ لهاعلى انفراد

باولين — قل ما تشاء بحضرتهِ فهو ممّن يوثق بهِ

فهزَّ كتفهُ ودار ليعود من حيث اتى فلما بلغ الباب التفت اليها وقال

— لا تدعي الفرصة تفوت فحياة تابعكِ في خطر ولست اطلب منكِ مستحيلاً فترفضين .

فاومأت باولين الى الطبيب بالانصراف فصدع باشارتها وبقيت مع اوريون وجهًا لوجه فقال

— ماذا جنيتُ يا باولين حتى بتِّ تجتنبينني كما يجتنب الابرص وعلامَ تبعين الايقاع بي

— لا ابغي الايقاع بك وانما اريد انقاذ تابع امين لي

— وتتعللين ذلك ولو آل الى هلاكي

— اذا اصررتَ على اتهام غيرك بذنب اقترفتهُ فلا تستغرب ذلك مني

— اذًا كنتِ ترقبينني الليلة البارحة

— رأيتك اتفاقًا وانت خارج من دار التحف

— لا اتولى سؤالك عن علة وجودك هناك في تلك الساعة من الليل ولا اظنهُ للاجتماع بحبيب افلقيتِ مني غير الصداقة والحب حتى تجاهري بعدائي

— أوَ لتهمني بالاجتماع بعاشق ثم تمنُّ عليَّ بحبك وقد خطبت لنفسك اخرى

— ومن اعلمكِ بذلك

— امك

— فهمتُ الآن فهو الذي اثار البغضاء في صدركِ وفاتكِ ان غيرتكِ هذه دليل على حبك لي

— لا تخدعنَّك هذه التآويل فلستُ من الغبيّات اللواتي يغويهنَّ كلامك العذب او تفتنهنَّ عطاياك فانا ابنة توما فاذا اراد خطيب غيري ان يطارحني الحب فليعلم ذلك المغرور

ان في النساء من تسخر بهِ فعُدْ الى قضائكِ وكن شاهد زور على حيرام فاطلعهم انا على الحقيقة وسترى من يصدقون . فصاح اوريون وقد كاد الغيظ يخنقهُ

— سيصدقون ابن المقوقس وليتكِ رجلٌ فاجبركِ على طلب الصفح مني . لقد اقترفتُ ذنباً كبيرًا وساجني عاقبتهُ ما دامت البغضاء تغلي في صدركِ وغيرتكِ تعمي بصركِ

— لا غيرة ولا بغضاء فمن انت حتى افديك باشد الناس امانةً في خدمتي واكثرهم اخلاصاً لي فليحكم القضاة بيننا

— لكن حكمهم سيخالف حكمكِ فلا تحرجيني وانتهزي هذه الفرصة قبل ان يحل بكِ ما تكرهين

— افأنا اوخذ بذنبك ايضاً

— هل سمعتِ نباح الكلاب الساعة

— نعم سمعتهُ

— فاعلمي اذاً انهم قبضوا على حيرام. وبعد ان شمَّتهُ الكلاب اطلقناها في البيت امام دار التحف فاجتمعت جميعاً على عتبتها وبعد الفحص عثرنا على وقع قدم بثلاث اصابع فاتينا بحيرام واذا في رجلهِ اليمنى ثلاث اصابع فقط وكان في الجانب المقابل اثر آخر علمتُ انهُ وقع قدمك وخلاصة ما يستنتج من ذلك ان اجنبياً طرق البيت في الليل وانسلَّ الى دار التحف فسرق الزمرّدة فبكِ كنت مكان القضاة اتغضين عن جميع هذه الحقائق وتؤثرين عليها قول فتاة يعلم الناس انها عدوة ربة البيت وانها تبذل وسعها في انقاذ تابعها

— يا للفظاعة فحيرام لم يسرق زمردتكم وانما هي زمردتي باعها الصيرفي فهل خفي الامر عن عين هاشم حتى لم يستطع ان يفرق بين الاثنتين

— نعم والليالي حبالى يلدن العجائب افأعطيتِ زمردتكِ لحيرام ليبيعها فتستعيني بثمنها على مغادرة منف . اراك صامتةً وهو علامة الايجاب فقد علمنا انكِ تكرهين امي ولكن ما ذنب ابي وعلامَ تطلبين هلاك الابن

— لا اطلب هلاكك ولا اكره امَّك ولكن اباك ابى ان يعطيني من مالي ما ابحث بهِ عن والدي المنكود الحظ

فلما اعيتكِ الحيلة عمدتِ الى بيع تلك الزمردة النفيسة ولا ارتاب في ما تقولين فاني تحسبكِ مثال الصدق فاذا كنتِ لا تبغين ايقاع الاذى بي فاتبعي مشورتي واسمعي ما اقول

— قل

— اتدركين ما لشرف المرء من القيمة في عينيهِ او تجهلين ان في افتضاح السرّ عارًا عليَّ لا يمحى فاذا علم ابي بذنبي مات غمًّا وقهرًا وهذا تابعك يريد ان يتلبس بالجريمة فهو ساكت لا ينطق حرفًا فشاركيهِ في السكوت واذا اصرَّ القضاة على معرفة ما جاء بحيرام اليكِ في الهزيع الاخير من الليل فتمحلي ما شئت من الاعذار كأن تقولي انهُ سرق الزمردة ليبحث عن سيدهِ المحبوب فاذا اسعفتني بهذا القدر فاني اقسم باعز الاشياء لديَّ وبراس ابي لاطلقنَّ سراحهُ بعد ثلاثة ايام من صدور الحكم واعوضهُ من سجنهِ تعويضًا عظيمًا فالتزمي العصمت ولك مني ما قلت

وكان كلامهُ كلام خائف حذر يلتمس شيئًا ولا يدري ما يكون جوابهُ فرقَّت لهُ واثّر فيها تذللهُ واستعطافهُ وتبدَّى لها كشجرة يانعة اصابتها صاعقة فتشقت جذعها فاذا لم يسرع البستاني فيسندها القتها الريح على الارض. فاطرقت ساعة ثم اجابتهُ الى ما طلب بشرط ان ينقذ حيرام ولمَّا وعدها بذلك اندفعت تخاطبهُ بكلام التوبيخ والتقريع حتى اعياهُ الغيظ وندم على اعترافهِ لها بجريمتهِ فتمكن كرهها في قلبهِ وتمنَّى لو كانت رجلاً فيجاربهُ ويقهرهُ ولكنهُ كتم ما بهِ فلما فرغت من خطابها قال

— ارى انفصالكِ عنا خيرًا لنا جميعًا من بقائك فتهيأي الآن للذهاب الى المجلس فالقضاة في انتظارنا

— وانتَ فاحرص على حياة تابعي واذكر وعدك

— اذا قمتِ بوعدكِ فعلت والاَّ فالحرب بيننا. فبرقت عيناها وصاحت

— ليكن كذلك فعندي حجة قاطعة ان الزمردة زمردتي

— ويلٌ لكِ اذا احرجتني

— قال هذا وانصرف من امامها

الفصل الثاني عشر

فارق اوريون باولين وفي صدرهِ منها حزازات فشقَّ عليهِ ان يهون بعد العزّ والرفعة وعجب ان امرأة تجرأ عليهِ بمثل ذلك الكلام وهو فاتن النساء ومغناطيس قلوبهنَّ فخطر ببالهِ شيء رآهُ في بعض الكتب وفيهِ ان من ارتكب جريمة ودرى بها سواهُ فحياتهُ وهلاكهُ بين شفتي ذاك فساءهُ ان يكون الواقف على دخيلة امرهِ باولين دون سواها وهي التي كان يخطب ودَّها ويتمنَّى قربها ويطلب رضاها فاصبحت الآن الدّ اعدائهِ على انَّ ما ابدتهُ من امارات الاحتقار والكره لم يخفِ عليهِ حبها لهُ فقال في نفسهِ ان الحبّ ذو وجهين كالدينار احدهما الانعطاف

الشديد والآخر النفور فهي تريني الساعة الوجه الثاني على ان رنة الذهب لا تخفى ولو خفي نقشهُ واكاد اميّز رنّة الحب في كلامها القارص

وكان الحكم بالاعدام من امتيازات اسلاف المقوقس من يوم كانوا عمّالاً في الاقاليم المصرية في زمن الفراعنة قبل غزوة قمبيز ملك فارس وكانت راية الصلّ لا تزال تخفق على قصور المقوقس في منف وليكوبوليس (اسيوط) والى جنبها علم القديس جرجس قاتل التنين . وظلّ الوالي من اسرة المقوقس صاحب السلطة والحكم بالاعدام وغيره من العقاب على المجرمين من اتباعهِ وسواهم في هاتين المدينتين وما سواهما من الاقاليم التي في عملهِ واثبت الامبراطوزان يوستنيانوس وهرقل هذه الامتيازات بما اصدراهُ من الاوامر الملكية بشأنها فلما غزا العرب مصر واستولوا عليها ابقوا على امتيازات واليها كما تقدم

وكان المجلس المكلف بالنظر في القضايا الخاصة بقصر المقوقس مؤلفاً من كبار رجال القصر برئاسة الوالي نفسهِ فاذا غاب اناب عنهُ ابنهُ او غاب عنهُ تولّى الرئاسة نياس الخازن لما اشتهر بهِ من بُعْد النظر والحكمة والخبرة فامر المقوقس ابنهُ اليوم ان يرأس المجلس بنفسهِ ودفع اليهِ خاتمهُ علامة السلطة واوصاهُ بمعاقبة الجاني اشدّ العقاب تأديباً لهُ وارهاباً لغيرهِ لكنّ اوريون لم ينسَ وعدهُ لباولين فتوسّل الى ابيهِ ان يخولهُ السلطة التامة في امر الحكم وقال لن هاشمًا من ذوي الانصاف واهل المروّة والاحسان فلا اخالهُ يصرّ على قتل السارق فضلاً عن ان حيرام ليس من اتباع القصر ولكنهُ في خدمة نسيبتنا فسرّ المقوقس لاعتدال ابنهِ واذن لهُ باعتماد رأيهِ وتمنى لو يستطيع الحضور في المجلس لكي يراهُ بعينيهِ يتولّى زمام أشرف الاعمال واعظمها فقبّل اوريون يدهُ والكآبة ملء صدرهِ لعلمهِ ان مدح ابيهِ واقع في غير محلهِ ولانهُ لم يجهل هول موقف يتهم فيهِ بريئًا بجريمتهِ ويحكم عليهِ

ولما دخل المجلس وجد فيهِ مرضع باولين تخاطب نياس الخازن وهي تبرق وترعد وتقسم ان حيرام بريء وانهُ باع زمردة سيدتهِ لا زمردة القطيف بدليل ان العقد لا يزال في صندوقها وفيهِ مكان الزمردة الى ان قالت او يسرّكم ان تأتوا بابنة توما العظيم الى هذا المجلس كأنها من عامة الناس . فلما سمع اوريون ذلك امر بسجنها موقتاً فذهل نياس لحدة سيدهِ واضطرب لاضطرابهِ وخال اوريون ان باولين خدعتهُ فلزمت الصمت بحسب وعدها وارسلت مرضعها الى نياس احذق القضاة وادهاهم فباحت لهُ بالسرّ وسردت لهُ الادلّة المثبتة براءة حيرام فاشتدّ بهِ الحنق وعزم من تلك الساعة على ردّ كيدها في نحرها فاطرق هنيهة ثم هبّ من مكانهِ واسرع الى كوخ بوّاب القصر وكان هذا البواب في شبابهِ حدادًا وصانع اقفال فلما شاخ دخل في خدمة

المقوقس وظل يعمل في صناعته كلما دعت الحاجة وكان اوريون في صباهُ يتردد اليهِ ويلهو بمساعدتهِ فيفك الاقفال ويصلحها ويصنع صناديق صغيرة من الخشب المخمور ويقدمها هدايا لوالديهِ في عيد ميلادهما وهو العيد الذي كان المصريون القدماء يحتفلون بهِ ويتبادلون فيهِ الهدايا. فلما بلغ الكوخ تناول شيئًا من الادوات فدسَّهُ في جيبهِ ورأى باقة من الزهر كان قد قطفها قبلُ لباولين فحملها ايضًا واسرع الى غرفتها فاقفل الباب وجثا امام صندوقها بعد ان طرح الازهار على مائدة قائلاً اذا ابصروني قلت انني جئت لاعطيها الباقة

ثم عمد الى لوالب مفاصل الصندوق فحلَّها وقلبهُ يخفق خوفًا وجزعًا ويداهُ ترتجفان فلما نزعها رفع الغطاء شيئًا فشيئًا خشية ان ينكسر القفل ومدَّ يدهُ الى الداخل فكان اول ما لمستهُ العقد فاخرجهُ ونزع منهُ موضع الزمردة فاخفاهُ في جيبهِ وبينما هو كذلك خطر لهُ خاطر ارقصهُ فشق ثوبهُ واخرج سلسلة من الذهب متدلية من عنقهِ وفي طرفها حجر كريم نفيس عليهِ نقش قديم من اثمن ما صنع الصنَّاع فنزعهُ من مكانهِ ووضعهُ في العقد مكان الزمردة ورد العقد الى الصندوق ثم اطبق الغطاء واعاد المفاصل واللوالب الى مكانها واحتمل الازهار بيدهِ ويسار الهوينا الى الباب ففتحهُ واطلَّ منهُ فاذا الجوّ خالٍ فاسرع الى الطبقة السفلى وهو يطفر ابتهاجًا فلقيتهُ مهذبة ماري فحياها ودنى اليها بالباقة فشكرتهُ واكبرت تنازلهُ اما هو فسار الى المجلس فدعاهُ نيلس لتبوء كرسيّ الرئاسة ففعل وبعد ان استراح وقف وشرح القضية واتى على البينات التي تصرف التهمة الى تابع باولين وكان كلامهُ متقطعًا والارتباك بادياً عليهِ ولم يخفَ ذلك على القضاة لكنهم نسبوهُ الى حداثة عهدهِ في القضاء ولما فرغ اومأ الى حيرام وامرهُ ان يدافع عن نفسهِ فتمتم شيئًا ثم قال انهُ بريء من التهمة وان في استطاعة سيدتهِ اظهار براءتهِ للملإ فالتفت اوريون الى القضاة وقال

ان سيدتهُ فتاة عريقة الحسب ولها نسابة بنا فلا يليق بنا ان نمرّغ اسمها في هذه الحمأة على اني سمعت مرضعها تقول شيئًا لنيلس قد يؤول الى تبرئة المتهم لكننا نتخذ جميع الوسائل لكشف الخبإ ولما كنتم غير واقفين على تفاصيل المسألة رأيت ان اعلمكم ان سيدة المتهم شديدة التعلق بهِ فهو ومرضعها البتية الباقية لها من بيت ابيها فيحسن اذًا ان شريفة مثلها تحوّل شيئًا من التهمة اليها لتنقذ تابعًا امينًا مخلصًا في خدمتها اقترون اذًا ان ندعو المرضع او تكتفون بما قالتهُ لنيلس دفاعًا عن المتهم فاجاب نيلس

— لقد سمعتَ بنفسك يا مولاي ما سمعتهُ انا ايضًا ولما كنت لا استطيع اعادة قولها تمامًا فليؤتَ بها الى الحضرة فاستحسن الباقون رأيهُ واتى بها فلما سئلت عن تعرفهُ لثبات السرقة قالت

— لقد غالى حيرام في الصمت والحقيقة ان سيدتي لا يهمها من الوجود سوى البحث عن ابيها فلما فرغت دراهمها واعيتها الحيلة امرت عشيقها هذا بنزع زمردة كبيرة من عقد لها وبيعها ففعل وهي الزمردة التي اتهموهُ بسرقتها . فوقع كلامها وقعًا شديدًا في نفوس القضاة ومالوا جميعًا الى تبرئة حيرام فنطن اوريون الى مرادهم فقال

— من العجب العجاب ان يخلق في ساعة واحدة حجر يماثل حجر القطيف بحيث لا يستطيع امهر الصاغة التفريق بينهما وما حكاية هذه العجوز سوى حديث خرافة يقصد بهِ مخادعتنا عملاً بوصية سيدتها التي تريد ذرّ الرماد في عيوننا وتطلب تبرئة تابعها ولو كلفها ذلك عناءً كبيرًا هذه هي الحقيقة فهل تصرّين يا امرأة على ما قلتهِ او لكِ كلام آخر تثبتين بهِ صحة دعواكِ .

فلما سمعت المرضع كلامهُ وكانت تحسبهُ نصيرًا لسيدتها استشاطت غيظًا فصاحت بهِ

— لقد قلت الصدق وعقد سيدتي في صندوقها وفيهِ مكان الزمردة فهو اصدق شاهد على صحة قولي . فاجاب اوريون

— لم يبقَ مندوحة من دعوة السيدة باولين الى المجلس فسِرْ اليها يا نيلس وليأتوا بذلك الصندوق ايضًا وادّ لها واجب الاحترام كما يليق بمن كان مثلها من الشريفات . فصدع نيلس بالامر وبعد قليل عاد بها وبالصندوق فحياها اوريون واومأ اليها بالجلوس ثم طلب الى نيلس ان يشرح لها سير القضية الى تلك الساعة وان يوقفها على ما يعدهُ القضاة دافعًا لها في عملها هذا وبفهمها ان العدالة ستأخذ مجراها . ورأت باولين الشرّ باديًا في عينيهِ ففهمت انهُ سيحلف وعدهُ ظنًّا منهُ بانها ارسلت المرضع سرًّا لتطلع نيلس وسائر القضاة على كنه الامر فيبرئوا حيرام ويلقوا تبعة السرقة على مرتكبها فوقف نيلس وشرح القضية الى ان قال ونحن جميعًا آذان لاستماع دفاع السيدة النبيلة عن نفسها وعن تابعها ثم ننظر في هذا الصندوق والعقد الذي فيهِ . فاستحوذ القلق على اوريون وعلا وجههُ الاصفرار واحسَّ كأنهُ المجلس بما فيهِ محجوب عن عينيهِ بحجاب من الضباب وعلم ان باولين ستخذل وتفشل في مناوأتها اياهُ لكنهُ تمنّى مخرجًا لهُ من ضيقهِ دون ان يكلفها ذلك العناء وايقن انهُ بفعلتهِ هذه سيخسرها وتنقضي بخسارتها سعادتهُ فلما فرغ الخازن من الكلام رمت باولين مفتاحًا على المائدة وقالت فليفتحوا الصندوق فاسرع بعض الخدم وفتحوهُ فتناولت العقد ورفعتهُ لكنها لم تكد تراهُ حتى طرحتهُ على المائدة وصاحت يا للعار وخارت قواها فتمايلت كالثمل واتكأت على مرضعها لئلاَّ تسقط الى الارض فدنا منها اوريون يريد اسعافها لكنها رشقتهُ بنظرة ملؤها الغيظ والاحتقار وحرقة القلب فثبت في مكانهِ فمضت الى كرسيٍّ وجلست . واذهل القضاة ما رأوهُ فتقدم قائد الحرس فرفع العقد وشرع يتأملهُ فلما بلغ

وسطاهُ قال هذا لعمري حجر كريم والذي يزيد في قيمتهِ ما عليهِ من النقش فهذا اله الحبّ وتلك الاهة العقل عشيقتهُ تبشّ في وجههِ ويلوح لي ان السيدة اخطأت فاخرجت عقدًا غير الذي نحن في صددهِ فهل رأيت يا غالائيل انفس من هذا. فقاطعهُ اوريون وامرهُ بالصمت ودنا نيلس من باولين وسألها عمَّا اذا كان العقد الآخر لا يزال في الصندوق فلم تجبهُ لان الذهول والدهشة اخرساها وحارت باية معجزة تسنّى لاوريون ان يفعل ما فعل لعلمها ان مفتاح الصندوق مربوط بسلسلتها فشقّ عليها ان ينتصر الباطل ويدحض الحق فهبَّت من سباتها وعاودها النشاط والقوة فعزمت على الدفاع الى النهاية لكنَّ قلبها أبى عليها ان ترمي اوريون بالسرقة فتشهرهُ وتعيث بصيتهِ وذكرت وعدها لهُ واحسان ابيهِ اليها فرأت ان تحفظ الوعد وتقابل احسان الوالد بالعفو عن ابنهِ وكانت تفكر في امرها واوريون ينظر اليها ويحاول الوقوف على ما يدور في خلدها ثم انتبهت الى حيرام وقد شدوا وثاقهُ وربطوهُ الى سارية كما كانوا يفعلون بالمجرمين فخطر لها ان سكوتها قد يؤدي الى هلاك نفس بريئة فاذا خلصت هي فلن يخلص فعاودها عزمها الاول وحوّلت وجهها عنهُ الى القضاة وقالت

— لقد خُدعتم وانطلت عليكم حيلة يراد بها اذلالي وقمعي فانظروا الى هذا الموثق واحكموا ما اذا كان في وجههِ ما يدلُّ على ارتكاب الجرائم وقد بلوتُ امانتهُ واخلاصهُ بنفسي يوم رماني الدهر بنكباتهِ فانهُ ابى ان يتخلى عني انا المسكينة اليتيمة فترك زوجتهُ وابنهُ وتبعني والآن فاذا اردتم الوقوف على الحقيقة تكلمت والاَّ .... فصاح اوريون تكلمي فقالت

— يعلم ابن المقوقس ورئيس هذه الجلسة ان بوسعي الوقوف موقف الشاكي لكني احجم اكرامًا لخاطر ابيهِ الكريم ولاني اعزهُ شأنًا منهُ وهذه الاشارة تكفيهِ امَّا الزمردة فقد اقتناها حيرام بامري من عقدي امس في الليل وقد رأى غيري العقد بعد ذلك وشاهد موضع الزمردة فيهِ وبقي العقد على حالهِ الى ما بعد ظهر اليوم حين علّقت يد جان اثيم هذا الحجر بهِ ولما كان هذا الحجر نفيسًا يساوي الالوف فالفاعل ذو ثروة طائلة ولعلَّهُ اغناكم وانت يا غالائيل فبكم تقدّر ثمنهُ . فاجاب

— لم تقع عيني على مثلهِ واني اشتريهِ بوزنتين على اعوازي

فذهل القضاة وداخلهم العجب فقال اوريون

— ان هذا من خوارق المعجزات فقد نمى الينا اخبار عن الكرم حتى خلنا ان هذه الخلة ضاعت ولم يبقَ سوى اسمها فاذا بها اليوم فينا فلعلَّ ماردًا هوى الى الارض فاستبدل قطعة من الذهب بحجر كريم كهذا فاخبرنا ايتها السيدة من رأى العقد

— رأته ماري حفيدة المقوقس

— اتعنين تلك الطفلة التي تكاد تعبدك والتي تطيعك كما يطيع الكلب صاحبهُ

— لم ترهُ وحدها فقد كانت كاترينا ابنة سوسنة هناك ايضاً وهي ليست بطفلة بعد فاطلب اليكم ايها القضاة باسم العدالة ان يؤتى بهذين الشاهدين فتسمع كلامهما فقال اوريون

— اما شهادة ماري فمردودة لانها قاصرة فلا تعتبر شرعاً وفضلاً عن ذلك فحضورها وتخلفها منوطان بجديها ولا ارضى ان يقترن اسم احد من اهل هذا البيت بهذه القضية اما كاترينا فحكمها غير حكم تلك ومن واجبات المحكمة ان تأتي بها وتسمع شهادتها وهانذا ذاهب لادعوها . فارادت باولين ان تستطرد الكلام فمنعها وقال ستقولين ما تشائين بحضرة الشاهدة ولا ريب عندي ان الزمردة التي من ابيكِ قال هذا ساخراً فصاحت باولين

— ان شقياً مشاركاً لك في الجريمة دخل غرفتي اثناء غيابي فكسر قفل الصندوق او فتحهُ بمفتاح مصطنع وفعل ما فعل

— لا اسهل من تحقيق ذلك ثم امر ان يرفعوا الصندوق ففعلوا وطلب من احد اعضاء المجلس ان يفحص القفل وكان هذا الرجل فاضلاً صادقاً خبيراً بالحرف اليدوية والآلات وكان عملهُ في القصر اصلاح الساعات المائية والادوات والموازين والمكاييل وغيرها فامتثل امر اوريون وتفحص القفل فالفاهُ سليماً ثم عمد الى المفتاح فاذا به مما يصعب تقليدهُ فلما فرغ اعلن رأيهُ فحُصرت باولين فامر اوريون ان يفصلوا بينها وبين المرضع في غرفتين الى ساعة عودتهِ بكاترينا

واختلط الامر على القضاة لتعاقب هذه الالغاز ولم يكن يتهم من يرتاب بصدق ابن مولاهم واخلاص طويتهِ لكنهم عجبوا كيف لم يستطع على ما لهُ من السلطان على النساء ان يكتسب حب تلك الحسناء فاثار سخطها وهاج بغضاءها وساءهم منها اتهامها اوريون بفتح صندوقها لكن لهجتها وحدتها وجمل حركاتها اثرت فيهم فانتظروا عودة اوريون بكاترينا قائلين اذا جاءت شهادتها مطابقة لقول باولين كان الحق في جانب هذه وعاودنا التحقيق من باب آخر

وكان الوقت نحو الزوال وقد جلست السيدة نفورس وسوسنة وابنتها كاترينا وماري ومهذبتها في ايوان يطل على البستان والنيل يروحنَ النفوس في النسيم البليل وقد غطين وجوههنَّ بنقب رقيقة ليتقين لذع البعوض واخذن يتعللن بشيء من الشراب المنعش وبينما هنَّ كذلك طلع عليهنَّ اوريون فلما ابصرتهُ قالت امهُ وقد راعها اضطرابهُ

— ما الخبر فقال

— لقد دافعت باولين عن عتيقها دفاع اللبوة عن اشبالها فقالت امهُ

— وغرضها من ذلك تكدير صفائنا فقال

— لا يا اماهُ ولكنّ لها عزمًا ينلّ الحديد فاذا ارادت امرًا بذلت النفس والنفيس في طلبهِ وقد ادهشتنا بقوة حجتها وبراعتها في سرد الادلّة حتى لقد يحسدها اعظم المحامين في القسطنطينية على سلامة ذهنها وقد خلبت فصاحتها وجمالها الباب موفلي بيتنا على ان غيرتها المحمودة لن تفيدها مثقال ذرة فالبينات على جريمة حيرام عديدة جليّة ومن جملة ما ادعتهُ ان كاترينا وماري رأتا عقدها بعد ظهر اليوم وابصرتا مكان زمردة مقلوعة منهُ فهل ذلك صحيح فاجابت كاترينا

— لكنها اخطفت العقد منا . فاعترضتها ماري وقالت

— ذلك لاننا تقلدناهُ على غير رضاها . فصاحت امهُ

— وتريد عظمتها الآن ان يؤتى بابنتينا ليؤدّيا شهادتهما

— نعم يا اماهُ على ان شهادة ماري لا تعتبر شرعًا اذ هي لا تزال قاصرة

— وهب القانون يجيزها فلا اسمح ان يقترن اسمها بهذه القضية . فقالت ماري

— انكم تابون عليّ تأدية الشهادة لئلا اقول الحق فتنتصر باولين فقالت جدتها

— اخرسي فقيادكِ ليس في يدك وما الامر من شؤونكِ وقالت سوسنّة

— يشقّ عليّ ان تقف ابنتي امام هؤلاء القضاة فقالت كاترينا

— لينتظروني ما شاءوا فلست بذاهبة اليهم فاجاب اوربون

— ذهابك واجب وللمحاكم ان تستدعي من تشاء ولها ان تجبرهُ على الحضور فسيري معي ولا تخشي بؤسًا ومتى اديتِ الشهادة اعدتكِ الى املكِ . وانتِ يا سوسنّة فلا تبخلي عليّ بها اليوم وستحدثك بعد عودتها بما تلقاهُ من عنايتي . ولم تكن كاترينا لتكره الذهاب مع اوربون والعودة معهُ فرقص قلبها فرحًا واستفزها الحب الى طاعتهِ فنهضت من مكانها وتقدمت اليهِ فتعلقت بها ماري وتوسلت اليهم جميعًا ان يأذنوا لها ايضًا بالذهاب لتأدية شهادتها فارغمتها جدتها وهذبتها على البقاء وهمست نفورس في اذن سوسنة فقالت سيقفان اليوم امام القضاة وعمّا قليل امام الكاهن ان شاء الله

امّا اوربون فسار بكاترينا ولم يذهب توًّا الى المجلس بل اختار الطريق الابعد دائرًا حول البيت فلما صارا بحيث لا تراهما السيدات امسك يدها وقبلها فلم تزجرهُ على ان الحياء والسرور غلبا عليها وملآ قلبها فقالت آه يا اوربون

— ولكنَّ هذا حتى ولو كان قلبك يخفق كقلبي لسمتهما والدتانا

— لكن فؤادي مضطرم بهواك

— ايت ما تقولين صحيح. ثم طفق يشرح هواهُ ويحدثها باحاديث الغرام ويطارحها الحبّ حتى اسكرها وكان الماء حارًّا واريج الازهار يتضوع في البستان والقمر يرسل اشعتهُ من خلال الاوراق فيزيد الموقف بهجة والصدور انشراحًا فاخذ اوريون يدعوها باحب الاسماء ويعتبرها باجمل النعوت الى ان ثملت فقبَّلها مرارًا وهي تحسب ان السعادة حلَّت عليها وان الطبيعة عنيت بامرها فمهدت لها سبل العيش الهنيء والمستقبل السعيد وتمنت لو تدوم تلك الساعة وان ذلك الاجتماع لا ينقضي لكن اوريون لم ينسَ المجلس ولا ذهل عن غرضهِ من صحبتها فتأوه وقال

— اود البقاء هنا وتدعوني الواجبات الى مغادرة هذا الفردوس فهيا بنا يا حبيبة الى المجلس اني يسوءني ان يكون لباولين من الشأن في هذه القضية ما لها ولو كان في وسعي الدفاع عنها لفعلت. واخذ يثير غيرة كاترينا بهذا الكلام ونحو فوصف جمال باولين وشمائلها حتى اثار وجدها فاطمئنَّ على يدهِ وقالت

— آمنَّا ان باولين ملاك نازل من السماء فقُلْ لي الآن من تحب منَّا نحن الاثنتين واقصر عن اثارة غيرتي . فقال

— اتسألينني وانت تعلمين انها القمر البارد وانك الشمس الحارَّة فاتترك باولين لاحد آلهة اولمبس فانا قانع بحبيبتي كاترينا فهي شريكة حياتي وقسيمتي في افراحها

— ان شاء الله

— لقد اضاؤوا المصابيح في المجلس وكدنا نذهل عمَّا امامنا فهيا بنا. ثم تردد حنيهة وقال اتذكرين العقد الذي رأيتهِ بعد ظهر اليوم

— نعم فقد كان بديع الصنعة لولا ان في وسطهِ قطعة من الذهب مشوهة مكسورة

— يلوح لي انكِ ذهلتِ عن رؤية الحجر الكريم في تلك القطعة

— لم يكن فيها حجر كريم ولا يغرب عنك انَّ لي دراية بهذه الجواهر فقد خلَّف ابي مجموعة نفيسة منها ستعطيها اني لزوجي

— على ان ذلك لا ينفي خطأكِ في مسألة العقد فقد يحدث انكِ ابصرتِ قنا القطعة المذكورة

— ولكن يا اوريون ....

— اقسمت عليكِ الاَّ تناقضيني فسأستسلم لآرائكِ اما اليوم فاذا ناقضتني فالعاقبة وخيمة عليَّ ولست ادَّعي العصمة لكني ارتاب في صحة قولكِ فاذا لم تجيءْ شهادتكِ مطابقة لقولي

كنتُ في عيون القضاة كاذبًا ونحن الآن خطيبان فما يضرُّ احدنا يضرّ الآخر وما يفيدهُ يفيد ذاك ولا يخفى عليكِ ان القضاة سيجلُّون شهادتك محلاً رفيعًا لما يعلمونهُ من صدقكِ وانكِ خطيبتي وربة هذا البيت في المستقبل فاذا لم تجيبيني الى سؤلي الآن كانت دعوى حبكِ لي فارغة وليس ما اطلبهُ منكِ بالامر العسير فقولي فقط انكِ رأيتِ العقد وابصرتِ فيهِ حجرًا كريمًا منقوشًا عليهِ صورتا الحب والعقل

— اقول هذا للقضاة

— نعم يا ملاكي ولا يليق بكِ ان تردّي اول طلب اطلبهُ منكِ فاذا كان في قلبك شيء من الحبّ لي فلا تعملي على اذلالي امام باولين

— وماذا يهم الناس أحجر كريم كان في العقد ام قطعة من الذهب

— ستعلمين ذلك في ما بعد

— اريد ان اعرف الآن

— يضيق بي الوقت عن تفصيلهِ وقد عيل صبر القضاة

— سافعل ما تقول واراني ساذوب خجلاً فاسدل نقابي على وجهي فلا يراني القضاة

— مثلكِ مثل النعامة وهانذا افعل

وبعد ان اسدل نقابها كما ارادت سار بها الى غرفة الانتظار وتقدم وحدهُ الى المجلس فاخبر القضاة ان الارملة سوسنَّة اذنت في ارسال ابنتها اليهم تحت رعايتهِ على شرط ان يعيدها اليها بعد تادية شهادتها. ثم امر باحضار باولين ولما خلت كاترينا بنفسها في غرفة الانتظار اخذت الافكار تتقاذفها فخشيت ان يكون ما طلبهُ اوريون منها محض كذب لكنها عادت فقالت ان ذلك مستحيل فاوريون احسن الناس واسلمهم طوية فلا يكلف غيرهُ ارتكاب جرم كهذا ورأت ان من واجباتها الدفاع عنهُ ووقايتهُ من كل شرّ وخطر ثم ذكرت ما قالهُ من ان التناقض في قوليهما يفضي الى اذلالهِ ويجبرهُ على التسليم لباولين وهو ما كانت تعافهُ لغيرتها من اليونانية بعد ان سمعت منف باسرها تلهج بوصف محاسنها وتعدها خير عروس لابن المقوقس وعلمت ان ليس لها في بنات المدينة مزاحم غيرها فاخذت تلتمس لنفسها الاعذار ردًّا على ما تولد فيها من الريب وظلت كذلك الى ان عاد اوريون فادخلها الى المجلس ولمَّا سئلت عن العقد اجابت انها رأتهُ عند الظهر وابصرت فيهِ حجرًا كريمًا فأروها الحجر وسألوها عما اذا كان عين الذي رأتهُ فقالت

— انا اكره هذه النقوش الوثنية ونحن بنات اليعاقبة لا تتحلى بها

فدنت منها باولين وعيناها تقدحان شررًا وقالت

— اشرتِ الساعة الى مذهبك وهو يأمرك بقول الحق فاعلمي ان لشهادتكِ قيمة عظيمة في فصل هذه القضية فتبصَّري في ما تقولين ولا تعتصمي بالكذب . فصاحت بها كاترينا

— ليس الكذب عادتي وقد تعلمت ان اتبصَّر في ما اقول قبل قولهِ فقد كان هذا الحجر في هذا العقد . فصاحت المرضع يا لكِ من شقية . فارتعدت كاترينا واجالت نظرها في انحاء المجلس تلتمس ما تستند اليهِ فاسرع اليها اوربون واجلسها وامر بسجن المرضع عقابًا على شهادة الزور وباطلاق سبيل باولين واعادة صندوقها الى مكانهِ ولمَّا فرغ دنت باولين من الخوان فتناولت العقد وفصلت الحجر عنهُ ثم رمت بهِ الى غالائيل وقالت

— وهبتك هذا الحجر ولعلَّ اللئيم الذي علقهُ في عقدي يستردهُ منك فهذا العقد لامي وهو هدية الامبراطور ثيودوسيوس القديس اليها فلا اطيق ان انجسهُ بهدية لئيم غدَّار ولطرحهُ في النيل اهون عليَّ من ذلك فقد خُدعتم ايها القضاة فحيرام من اصدق الناس واخلصهم طوية ولن الذي معروفهُ الى الابد اما هذا واشارت الى اوربون فهو شر ابن لحيراب . فصاح اوربون كفى فقالت

— سمعًا وطاعة على ان ضميرك سيقرأ عليك اضعاف ما تحظر عليَّ قولهُ . ثم دنت منهُ وهمست اليهِ قائلة لقد ابيتُ ان اورد حجتي الكبرى قيامًا بوعدي لك فافعل انت كذلك وانقذ حيرام والاَّ فانت اخس الناس واحطهم . فوعدها خيرًا فالتفتت الى كاترينا وقالت امَّا انت ايتها الفتاة فلا اعلم ما يعدُّهُ لكِ ابن المقوقس من اسباب الشقاء لقاء نضرتكِ لهُ اليوم . ثم انصرفت وقد كاد الغيظ يخنقها وسارت الى غرفة مانداني فجلست بجانبها وهناك انهمرت الدموع من عينيها ورآها الطبيب كذلك فاخذ يعزيها ويطيب قلبها فلما ثابت الى السكينة حدثتهُ بجميع ما جرى لها

اما اوربون وكاترينا فعادا من المجلس كسيفي البال وكلٌّ منهما يفكر في شانهِ فوجدا سوسنة وحدها بانتظارها لان نفورس فارقتها لتذهب الى زوجها الذي كان يتقلب على فراش الاوجاع فرافق اوربون الارملة وابنتها الى مركبتهما وعاد الى المجلس فسرد خلاصة القضية على القضاة واتى على ذكر الادلة التي ثبتت التهمة على حيرام وبعد ان تداولوا ساعة حكموا على المتهم بالاعدام لخرقهِ حرمة بيت وارتكاب السرقة الاَّ نيلس الخازن فانهُ انشق عنهم فامر اوربون بتاجيل انفاذ الحكم . ولما ارفضت الجلسة اختار اسرع جيادهِ فامتطى صهوتهُ ولكزهُ فاندفع الجواد يعدو بهِ في عرض الصحراء

ستأتي البقية